

هذا « الرحيل » الى أين ؟

- ١ -

عبد الرحمن مجيد الربيعي

في مجموعتها القصصية الاولى « امرأة في اناء » كانت ليلي العثمان على ضفاف الهم الاجتماعي ، وكانت بعض القصص قد اوغلت في أعماق هذا الهم وتلبسته ، ومن هنا فان ولادتها كانت بعيدة عن كثير من الولادات القصصية التي تسطرها الكاتبات العربيات . ان ولادة ليلي العثمان لم تكن لتعاش على هموم العلاقة بين المرأة والرجل فقط بشكلها الشرقي الفاجع ، وانما انطلقت من هموم اخرى دون ان تنسى معايشة المخاضات الكبيرة التي تدور في مجتمعها ووضع المرأة من خلالها، المرأة بكل عطاؤها ورغبتها في اداء دورها الانساني الكبير بكامله .

ولقد تحمست لتجربة ليلي العثمان في « امرأة في اناء » لانها كانت منطلقا صائبا وحقيقيا ، ومن هنا فان مجموعتها الجديدة « الرحيل » (*) جاءت لتستكمل الاضاءات الاولى لتكون علامة متميزة على رسوخها في بيئتها واستيعابها لهموم مجتمعها وخاصة الساخن منها، دون ان تنسى الهم القومي الذي يعايشنا كالالم المستديم .

- ٢ -

تحتوي مجموعة الرحيل على ثلاث عشرة قصة قصيرة . تتفرد كل واحدة منها بموضوعها الخاص الذي لا يكرر تجربة سابقة بل يحتفظ بتميزه واستقلاله .

تبدأ المجموعة بقصة « الهمسة الملعونة » وبظهارجل همس في اذنه ان امراته تخونه ، فدفعته هذه الهمسة الى التنقيب في حياة هذه المرأة المشفولة دوما بأمر بيتها ، انه يتساءل : (انها لا تملك لحظة فراغ واحدة فمتى تخون ؟) ص ٨ . ولكن تساؤله يخرس عندما يرى هذا الانقلاب في حياتها حيث ينصب كل اهتمامها على نفسها وتناسي أمور البيت الأخرى ، وبدل ان يؤدي هذا الموقف الى نهاية شرقية حاسمة تنتهي القصة عندها . نجد ان النهاية يتحول فيها التساؤل الى : (ماذا تفعل زوجتي بكل الوقت الذي تملكه ؟) ص ١٠ . وتختتم القصة بتعليق يعطي القصة نهاية فنية مقنعة (وحسدها)

(*) منشورات دار الاداب - بيروت ١٩٧٩ .

ص ١٠ . أي ان الزوج يحسد زوجته لانها تملك الوقت الكافي لخيانته ، ومن هنا فان هذه النهاية التي قلت عنها بانها مقنعة فنيا ، تبدو غير مقنعة منطقيا وكان يجب ان تكون نهاية اخرى .

في قصة « الحشرات » ترمز الكاتبة الى الشرطة السرية التي تلاحق الناس من ذوي الماضي السياسي ب « الحشرات » ، وهؤلاء موجودون دائما يطاردون الابرياء والامينين ويسوقونهم لغرف التحقيق ويخضعونهم لاستجوابات مثيرة . وعالم قصة « الحشرات » ليس هذا العالم فقط وانما تتراكب فيه الاصوات وتتداخل بتناغم فني ذكي يبعد القصة عن السرد التقليدي ويخضعها لهذا النوع من الاختصار والتشذيب اللذين لا بد منهما من أجل ان تبتعد القصة عن الفضفضة والترهل .

ومن هنا فان هناك قصة اخرى داخل القصة ، التحقيق يدفع صوتا ثانيا من الاعماق لان يسرد حكايته ايضا ، هناك حب ، هناك « فرحة » وهناك رصاصة مدوية قضت عليها في يوم زفافها ، ومن هنا فان القصة تتكشف وتبوح بأسرارها بتفتر وصعوبة .

- ٣ -

اما قصة « نشاط تجسسي » فهي من أجمل قصص المجموعة وأكثرها تعبيرا عن اتقان ليلي العثمان للعبة هذا الفن الصعب - القصة ، ولكن اسمها « نشاط تجسسي » لا علاقة له باحداثها ، وكان من الممكن ان تحمل اسما آخر اكثر علاقة بالاحداث ، على اية حال ، المهم في الامر هو ان بعض القصص تشكل علامة مضيئة في هذه المجموعة ، وبينها هذه القصة التي تتحدث عن حياة ثلاثة رجال عازبين يعيشون في غرفة واحدة . نعرف عن احدهم - الذي يستأثر بأغلب الاحداث - انه مهندس وانه يخضع لرئيسه لانه أمسك به وهو يسرق ، ونراء - اي المهندس - يردد : (آه .. هذا المسؤول ..

٣ - الافادة من المناخ الكويتي وعادات الناس ووصفها للعشة التي يعيشان فيها - اي البطلة وزوجها العجوز - .

٤ - نجاحها في الخاتمة غير التقريرية وهذه المسألة من الممكن ان تعمم على كل القصص حيث ان الضربة الاخيرة للكاتبه موفقة دائما وسديدة .

- ٥ -

في قصة « آخر الليل » يكاد يضيع الموضوع الاساسي في خضم اسرابات جانبية قادت الكاتبة اليها القصة . هناك بطلة اسمها « وسمية » تبدأ القصة بها وهي مع زوجها « ناصر » الذي تنقل له خبرا مفرحا يتمثل في كونها حاملا ، ثم فجأة تنقلنا الكاتبة الى عالم البيت ، وبعد ذلك الى الجيران حيث الجار المتسوفى وما يحدثه موته من آثار ، ثم حوار أم وسمية وابيها عن زواجها من ناصر ورفض ناصر لهذا الزواج ثم خضوعه فيما بعد وقبوله به ... الخ وكل هذه امور جانبية مبعث من حرارة الحدث الرئيسي المتمثل بمشكلة وسمية وناصر ، ولو لم تلجأ الكاتبة في الاخير الى اعادتنا الى عالم اللقطة الاولى حيث وسمية وناصر في فراشهما الزوجي لما اكتسبت القصة حرارتها الاخيرة .

قصة « الرحيل » التي حملت المجموعة اسمها ليست هي أفضل قصص الكتاب ، والمأخذ الرئيسي الذي يسجل عليها يتمثل في مباشرتها ورموزها المكشوفة فالقصة تضعنا امام رجل وزوجته يريدان هجر بيتهما والذهاب الى مكان آخر ، والكاتبة لا تعطينا مبرر هذا الرحيل وان كنا سنفهمه ضمنا اذا ما افترضنا انهما فلسطينيان ، وكتعبير عن هذا الرحيل تسمي الكاتبة ابنة هذين الزوجين المتوفاة « هجران » ولنر هذه المباشرة في الاسم ، ثم يسند هذان الزوجان مهمة البيت الى شخص غريب اسمه « موسى » والاسم واضح في دلالاته، ورغم كل الوسايا نجد ان موسى هذا يستأثر بالبيت ويقوم بتبديل مفاتيحه واقفاله ليكون له . ومن هنا نرى اقتضاح الرموز ومباشرتها وكان بالامكان ان لا تلجأ الكاتبة الى هذا اللون من الترميز الذي رضخت له الكثير من القصص التعليمية التي كنا نقرأها والتي تتحدث عن الوطنية والنضال ولم نعد نقرأها منذ سنوات .

ولعل ما يشفع للكاتبه هو قدرتها على ادارة دفعة القصة وخضوعها لشروطها الصعبة بمعزل عن الرموز، ولو استبدلت كلمات مثل « هجران » و «موسى» بأية كلمات اخرى غير مباشرة لكانت القصة أعمق وأغنى ، وليس هذا هو المأخذ الوحيد على القصة اذ ان هناك اغرافا في العاطفية عندما يستعرض الزوجان أشياء بيتهما وماذا سيحملان منها في رحيلهما . قصة « تفرقت الخيول » من اجمل قصص المجموعة

لقد عرف كيف يستغلني . كنت اطمع بمستقبل اما الان فلا شيء سوى ان أقبع في هذا الحجر . لماذا ؟ لماذا خشيت اقتضاح أمري فصرت عبدا لهذا المسؤل ؟

سرقتم ؟ كلهم يسرقون .

زورتم ؟ كلهم يزورون .

كذبت ؟ كلهم يكذبون .

لكن سرقاتهم وتزويرهم وكذبهم لم يعرف بها

المسؤل) ص ٢٨ .

وفوق هذا تدور بينهم احاديث عديدة . عن امرأه اشتهاها المهندس . عن خلافاتهم الصغيرة وحواراتهم وهم في غرفتهم الضيقة . عن الكبت النفسي والجنسي الذي يعيشونه .

وتنتهي حياة هؤلاء الثلاثة بشكل فاجع حيث يقتل اثنان منهم بيد المهندس كما يموت المهندس بعد ان ينتحر غرقا .

ان الكاتبة لم تستطع اقناعنا بهذه الخاتمة التي برعت في تسجيلها عندما اعتمدت على عناوين الصحف دون الاعتماد على السرد الاعتيادي في تسجيلها . لم تستطع اقناعنا لان طبيعة الاحداث التي سجلتها القصة لا يمكن ان تقود الى قتل المهندس لرقيقه ثم انتحاره بعد ذلك ، وكان بالامكان ان تكون بصورة اخرى اكثر انتماء للاحداث . ولكن هذه النهاية من ناحية اخرى بارعة ومقنعة فنيا شأنها شأن نهاية قصة « الهمسة الملعونة » .

- ٤ -

قد يبدو موضوع قصة « من ملف امرأة » تقليديا وكتب عنه الكثير ، كما اننا نراه ممثلا في حالات عديدة مرت بنا في حياتنا وهو موضوع زواج فتاة صغيرة من رجل يكبرها في السن وما تعانيه هذه الفتاة جراء هذا النوع من العلاقات الزوجية .

لكن الكاتبة تبرع في ابعاد هذه القصة عن تقليديتها ومنحها قوة جديدة في التأثير . انها تنوي قتله وابعاده عن حياتها وتصر على هذا القتل كخاتمة للحالة التي تعيشها ، وتستطيع ان تقوم بهذه الفعلة في خاتمة القصة ، اما ابعاد القصة عن تقليديتها فقد تم بما يلي:

١ - الجمل القصيرة المكثفة والابتعاد عن السرد، وكشاهد على هذه الحالة الانتقال التي قدمتها الكاتبة راسا من خواطر البطلة الى قولها للحاكم : (نعم يا حضرة القاضي لقد قتلته) ص ٣٤ . وهكذا ابعدتنا عن السرد العريض والتقريرى في وصف الجريمة وبنودها .

٢ - استعمالها لحالة مضادة هي حالة الزوجين الشبابين « وضحة » و « فليحان » حيث واقتتها مع حالة البطلة وزوجها العجوز .

واكثرها اكتمالا . وعالمها هو عالم الناس الذين يعشقون الخيول ويحسنون تربيتها من اجل ان تساهم في السباقات ومراهناتها . ولو ان الشخصيتين الاساسيتين في القصة ليستا عبدا وسيدا بل كانتا مالكا وسيدا . اذن لخلصت آذاننا من قرع كلمة « سيدي » الذي رددته منصور كثيرا ولاصبحت ايضا مشاركته لطعام « سيده » مسألة اعتيادية .

لعل أجمل ما في القصة ثورة الخيول عندما بأع المالك نصف الاسطبل وحشرها في مكان ضيق . وإذا كانت ليلي العثمان قد برعت في نهايات قصصها فان هذه القصة المتفوقة تظل وحدها ضعيفة النهاية .

- ٦ -

إذا ما فرغنا قصة « الافعى » من الحلم الذي رآته بطلتها ووزعته في مقاطع بين ثناياها لبدت لنا القصة جد اعتيادية تدور عن انسانين يحبان بعضهما ويتناجيان بكلمات الحب والوئام وفق حوار صاف سعيد .

ولكن الكاتبة ، شأنها في كل قصصها ، تنتبسه دائما الى هذا الأمر وتجري على القصة عملية ثانية تجعلها أكثر شمولية وأبعد من الحدود التقليدية التي كانت تهددها .

وهكذا نجد ان الحلم جاء في وقته ليكون معادلا للعبة الحب بين هذين الانسانين وليكون أيضا قطبا نائيا في مساحة القصة بدل ان تكون أحادية المركز والمنطق .

في قصة « الوعود » هناك أم وطفلها وسييدة جلييلة تزور بيتهما ويأملان من وراء هذه الزيارة ان تتحقق كل أحلامهما لان لهذه السيدة التي احتفيا بزيارتها بركاتها وخيراتنا التي تفرشها في كل مكان تحل فيه - هكذا تظن الام وطفلها - وهذا ما يجعل رأسيهما عامرين بالأحلام . والقصة تفيد من العادات والخرافات التي تعيش في رؤوس المواطنين البسطاء والتي من الممكن ان تفيد في أعمال قصصية عديدة ذات هوية محددة تجعلها قريبة من القلب .

تحكي قصة « العطش » عن رجل وزوجته يبحثان عن شيء يروي عطشهما ويقومان بمغامرة بسيارتهما حيث يدخلان محلة شعبية مكتظة وتحدث لهما امور اخرى تبدو كالاسرار حيث يقاد الزوج الى احد البيوت في انتظار البضاعة كما يأتي احد الشبان ويقود السيارة والمرأة التي فيها الى مكان غامض . ومثلما دارت الاحداث في هذا العالم المدلهم تختتم به ايضا ، ولكن القصة تظل مقفلة لا تعطي مكنونها بسهولة وتظل كل الاحداث تساؤلات غامضة في رأس قارئ هذه القصة .

اما قصة « الموت في لحظة البدء » فتدور عن بائعة هوى وعالمها اليومي في محلة فقيرة والرجال الذين

تعرفهم ، ولكن هذه المرأة رغم كل شيء تجد من يطلبها زوجة وآخر يصارحها بحبه لها ، والكاتبة قد اوغلت في عالم هذه المرأة وكشفت عن البؤس والالم الذي تعيش فيه والناس الذين يدورون حولها ، والقصة تضرب على وتر مؤلم وتجعلنا نعاطف مع هذه المرأة ونرتي لها وهي اسيرة هذا العالم الجاحد .

- ٧ -

قصة « الجنية » هي لوحة تثير عدة معان واشواق وان كان يبدو منها هذا الحوار المكتف بين اثنين تفجر فيه الكاتبة قدرة استثنائية على فضح مكونات الكلمة واسرارها . لنقرأ هذه السطور : (يده تلتهمها .. تزرعها تحت الابطين .. يهرع الى الرمل الاصفر .. هنا .. وهناك .. أسراب نمل جائع .. وديدان منفوخة بطونها تحمل الاف الشرائق .. تتمدد على الرمل .. وفي الفضاء جراد .. وغربان .. على الاسطح أذرع ورؤوس وعيون .. وفي داخله تدك حوافر خيول عجولة .. في يده اظافر الجنية .. وكل الاشياء حوله تستجدي لحظة البدء الشجاعة) . ص ١٢٠ .

ان هذا التوليف بين الصور ضمن اللوحة الواحدة يجعل مناخها أكثر غموضا وابهاما وأكثر اثارا لعشرات الاسئلة حول هذه البئر التي أغرقتنا فيها هذه « الجنية » الغامضة .

وتشبه قصة « الطفلة » قصة « الجنية » في غموضها وكثافة رموزها ، ولعلنا نساءل بعد قراءتنا للقصة أية طفلة هذه (اظافرها المليئة بغضا وعداوة) ص ١٢٣ حتى ان ابويها يتمنيان لها الموت ، لذا نرى الام تدعو الاب لقتلها والخلاص منها .

(قلت له ذات مرة :

- لم لا تحطم رأس هذه الطفلة ؟ أقتلها .

قال حائرا :

- انها طفلتك .. منك .. تربت داخلك .. وها هي تنمو معنا .. تصير ابنتي العاقبة .

- لكنها تحطم صفائنا ؟

- الارض لا ترفض زراعتنا فيها . وهذه الطفلة نبتت هنا وسنقبلها رغم شرستها) . ص ١٢٤ .

الرمز في « الطفلة » بحاجة لبعض الضوء حيث ان الطفلة ترمز دوما الى تقيض ما ارادته ليلي من وراء قصتها هذه .

وبعد فان مجموعة « الرحيل » هذه دليل على ان رقعة القصة قد بدأت في الاتساع وان في ولادتها ولادة لعطاء اكثر نضجا وحياء .

تحية للكاتبة ولعطائنا .